# وتنوّع الهوية المصرية

## موجة عالية غمرت جيل الستينيات

القاهرة ـ **أحمد مجدي همام**

رحل إدوار الخرّاط إذاً. أسلم الروح في «مستشفى الأنغلو المصرية» في الزمالك، مخلّفاً وراءه مجموعة من الروايات والقصص والكتب النقدية في الأدب والفن التشكيلي. الخرّاط الذي يعدّ أحد الرواد في الرواية المصرية، وإحدى الأمواج العالية في جيل الستينيات، كان بمثابة عرّاب لكتّاب ينتسبون إلى أكثر من جيل، بدءاً بمجايليه ومروراً باللاحقين. لقد اعتُبر مؤسساً لحساسية جديدة طليعية في الأدب المصري والعربي. حرص الكثير من الكتّاب المصريين والجهات الثقافية على نعي الخرّاط، وهنا نرصد بعض الشهادات حول الروائي المصري الذي اختار أن يترجّل.

### إبراهيم عبد المجيد: أستاذي وأستاذ الجيل

الروائي إبراهيم عبد المجيد بدا مختنقاً بالدموع، وهو يتحدث بكثير من التبجيل عن إدوار الخرّاط. يقول صاحب «لا أحد ينام في الإسكندرية»: «خمسون عاماً هي عمر علاقتي بالراحل. كنت صبياً صغيراً لم أنشر حرفاً، وكنت أراسله من الإسكندرية ومفتوناً به. وفي عام 1966، التقيته للمرة الأولى. كان شخصية نادرة، وعبر نصف قرن هو عمر معرفته به، لم يصدر منه أي فعل يضايقني، بل على العكس، كان دوماً مصدراً للسعادة والبهجة. ثقافياً، من ينكر فضله، وهو المبشر بالتجديد، من منا لم يفتتن بـ«محطة السكة الحديد»، و«رامة والتنين»، وهو صاحب فضل عليّ لأنه أول من كتب عني، ولم يقدمني وحدي، بل كان راعياً لكل الأجيال، كان أديباً بارعاً وإنساناً نبيلاً».

### طارق إمام: قدرة على الاختباء

الروائي والقاص طارق إمام (1977) يقول: «أدّعي أنني أحد قراء إدوار الخراط، قرأت أغلب رواياته وعدداً كبيراً من ترجماته، وأبرز ما كتب نقدياً من دراسات تطبيقية مسحت أجيالاً متعاقبة. أحببت رواياته. انبهرت بلغته، ثم صرت أتحفظ على جاهزيتها حين كشفت قانون اللعبة بكثرة ممارستها، وعندما شعرت في لحظة بأن اللغة تصبح في مأزق عندما تسبق العالم/ موضوع الكتابة عوضاً عن الإصغاء إليه، فتصبح كل حكاية، وتغدو كل شخصية، تلخيصاً لصوت واحد على عذوبته، تنطق به بالقوة نفسها التي ينطقها بها. وأعتقد أن شكل علاقته بالعالم، الذي حدد طريقته في الظهور والتعاطي، أسهم في تأطير شكل شعبيته التي ظلت دائماً على المحك، ووسمته كثيراً بالمتعالي وقاطن البرج العاجي والانتقائي. هناك كُتّاب يذهبون إلى العالم حتى النهاية، وهناك كُتّاب يفضّلون بعد فترة أن يذهب العالم إليهم. أتحدث هنا عن الجانب الشخصي في طريقة خوض كل شخص لما ندعوه الحياة. النوع الأول يكسب تعاطفاً أكبر في الحياة ورثاء أشد سخونة عند الغياب، رغم أن حصانته تبقى على المحك وكبرياءه يظل مهدداً، لأنه يترك عند كل شخص حتى لو كان عابراً، حكاية تخصه، أو يتوهم حتى أنها تخصه. أعتقد أن صاحب «ساعات الكبرياء» اختار بعد فترة أن يكون من النوع الثاني، فلم يترك الخراط هذه الحكايات الصغيرة، إلا لقلة، لأن ظهوره الفادح كان هو نفسه، في ظني، قدرته على الاختباء».

### شاكر عبد الحميد: رائد الحساسية الجديدة

وزير الثقافة الأسبق الناقد شاكر عبد الحميد فضّل أن يحكي عن الجوانب الفنية في مسيرة إدوار الخراط. يقول: «أبدع الخرّاط على نحو متميز في مجالات عديدة، لكن أهم إبداعاته كان في القصة والرواية، على الرغم من يقينه المبكر بأن الفروق الحاسمة بين الأنواع تلاشت، حتى إن هناك استقلالاً بين الفصول في بعض أعماله الروائية، مثل «محطة السكة الحديد» و«الزمن الآخر»، و«يقين العطش». هناك علاقة من جهة، واستقلال من جهة أخرى بين فصول تلك الأعمال. في القصة القصيرة، هناك وقفات تطول، توقِف مجرى الشعور بشكل كامل، لأنه كان يرى الأعمال الأدبية قصة ورواية وشعراً كعالم متصل ومتفاعل، بحيث يكون الأداء هو ما يميز كل نص. كما كتب دراسات متميزة في التشكيل والأدب، وتبنّى أجيالاً وترجم العديد من الأعمال الأدبية المهمة. فقد كتب عن عدلي رزق الله وأحمد مرسي في التشكيل. وكتب دراسات مهمة عن كتّاب كانوا في بدايتهم مثل إبراهيم عبد المجيد، ومحمود الوردني ويوسف أبو رية، وتبنّى مفهوم الحساسية الجديدة. وتميز إدوار بثقافة موسوعية، ومعرفة عميقة بالأدب والفن التشكيلي والفلسفة وعلم النفس، والكتابة عنده وسيلة للبحث والمعرفة والمتعة، وهي أيضاً نوع من الاحتجاج المكتوب أو الخفيّ غير المباشر على الظلم الموجود في الحياة.

> الأساطير والرموز والأيقونات الفرعونية والقبطية مكون أساسي في أعماله

عالم الأحلام والكوابيس حاضر بشكل واضح في أعماله، والحلم لديه يستقطب الحكايات والشعر واللغة والأفكار والصورة، وهذا كان واضحاً في «رامة والتنين» و«الزمن الآخر» و«اختناقات العشق والصباح» وغيرها ... والأساطير أيضاً والرموز والأيقونات الفرعونية والقبطية مكون أساسي في أعماله، وهو أحياناً يتحدث عما نسميه الحلم الكوني، وهو معادل لحلم الليل والنهار ... والحلم الكوني عند الخراط هو الحرية اللانهائية.

وكنت قد أجريت حواراً معه قبل سنوات أكد لي فيه أنّه يشتغل على العمل داخلياً لفترة طويلة، إلا أنه يطلقه كتابة في دفقات كبيرة في فترة قصيرة، فقد كتب «رامة والتنين» في 27 يوماً، وكتب «الزمن الآخر» في 34 يوماً. في كلامه عن الإبداع دروس وتنظيرات عظيمة، وهو مهتم بضرب فكرة الزمن الخطي الكرونولوجي والتركيز على ما يسمى الزمن السيكولوجي، ويتضح انشغاله بمفهوم الزمن في عمله «الزمن الآخر». رحيل إدوار الخرّاط خسارة كبيرة، وعزاؤنا سيكون بأعماله الباقية بيننا».

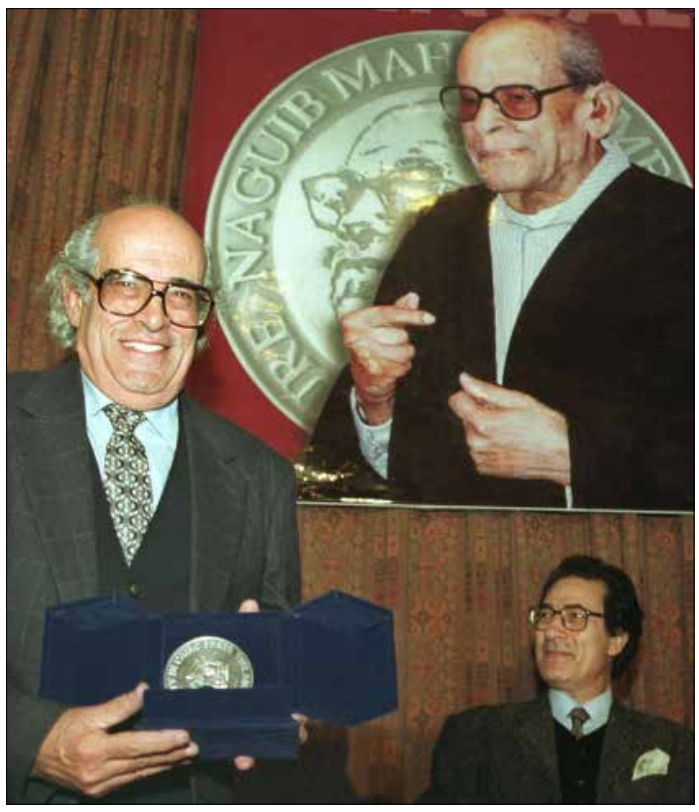

خلال تسلمه «جائزة نجيب محفوظ» عن روايته «رامة والتنين» عام 1999

## «رامة والتنين» ستحفظه من النسيان

**حسين بن حمزة**

كان ذلك في الثمانينيات حين كنا لم نزل قراءً ونبحث عن بقعة صغيرة في عالم الكتابة لكي ننقل قدماً واحدة ومرتجفة إليها. وكان إدوار الخراط واحداً من تلك الأسماء التي ستضع قراءاتنا الأولى وراءنا، وتضع وعينا الغضّ أمام جملة أو جمل سردية تبتعد، بطريقة ما، عن رومانسيات إحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله، وحتى عن بعض واقعيات نجيب محفوظ ويحيى حقي، التي كانت أجيال كاملة تتعرف إلى القراءة من خلالهم.

مع الخراط وأسماء أخرى كغالب هلسا وصنع الله إبراهيم وإبراهيم أصلان وعبد الحكيم قاسم، صار الحديث ممكناً ومستحقاً عن كتابة ما بعد محفوظية. كتابة ستتطور وتنضج أكثر، وسيذهب أصحابها إلى نبراتهم وأصواتهم الخاصة التي لن تقطع نهائياً مع الأفق المحفوظي، ولكنها ستجد في داخله وفي جواره حساسيات مختلفة يمكن الحفر فيها واستخراج سرديات غير مستعملة منها. نتذكر من أعمال تلك الحقبة: «اللجنة» و«تلك الرائحة» لصنع الله، و«الضحك» و«السؤال» لهلسا، و«مالك الحزين» لأصلان. نتوقف عند «رامة والتنين» لإدوار الخراط الذي تحولت مفردة «الحساسية الجديدة» لديه إلى ممارسة شبه كاملة في رواياته، وتوسعت داخل مصطلح آخر هو «الكتابة عبر النوعية» في تقديمه للآخرين وكتاباته عنهم.

كان الخراط كاتباً إشكالياً في زمن كانت فيه الكتابة المستتبّة والآمنة مفضّلة ورائجة، بينما الأسئلة الجديدة كانت تُطرح في ممارسات متعددة، وليس داخل الرواية والكتابة فقط. نتذكر تجربة «جاليري 68» التي كان واحداً من أعضائها، كمفصل ثقافي أساسي داخل مصر وخارجها أيضاً، فمن ذلك المختبر الطليعي وصلت اقتراحات وأطروحات مستجدّة إلى كتّاب وفنانين من الجيل نفسه في بلدان عربية أخرى.

من تلك الحقبة، وصلت أخبار الخراط وإشكالياته ومعاركه، قبل أعماله وكتاباته أحياناً. ترافق اسمه مع ضجة تقديمه لشعراء السبعينيات في مصر في أحد أعداد مجلة «الكرمل»، ومع انحيازه إلى قصيدة النثر المصرية، ومع اتهامه بـ«تخريب الثقافة المصرية» من قبل بعض خصومه أو المتضررين من انحيازاته لنصوص وتجارب معينة. كان الخراط اسماً بين أسماء ثمينة، وكان ذلك يعزز فكرة أن زمناً جديداً بدأ مع هؤلاء. زمنٌ سيشهد تحولات لاحقة وشجاعة في تجارب من جاؤوا بعدهم في الثمانينيات والتسعينيات. وبرحيله، تتصاعد خسارتنا بزيادة عدد من فقدناهم من الأسماء الخصبة لذلك الجيل الذهبي. من بين أعماله، سيتذكر كثيرون «رامة والتنين»، وخصوصاً في جزئها الأول قبل أن تصبح ثلاثية روائية، ثم خماسية.

في الكتابة البحتة والصرفة، هذا كتابٌ خالد، وسيظل قادراً على حفظ اسم إدوار الخراط في غيابه.

## كولاج بلاغي ثريّ بالإحالات

**خليل صويلح**

واجه إدوار الخراط في غيبوبته الأخيرة أصعب أنواع الأقدار. باغته مرض الزهايمر، فأصابه بطعنة النسيان. أن تكون روائياً تحوم في فضائك التخييلي مئات الشخصيات ولا تتذكّر المصائر التي اخترتها لها بسبب النسيان، عقوبة عسيرة الهضم.

لا نعلم كيف تداخلت في ذهن صاحب الوقائع التي سردها طوال عقود، وهل انتقلت شوارع الإسكندرية إلى القاهرة أم إلى الصحراء، وهل عصفت الرمال بطبقات التاريخ التي رصدها بعمق في «رامة والتنين» (1980)، تلك التحفة التي لفتت الأنظار إلى طراز سردي مختلف، يقف على الضفة الأخرى لسرد نجيب محفوظ. تحدي صاحب «حيطان عالية» بتأصيل نص تخييلي مارق أتى باكراً، بانتباهه إلى المناطق المعتمة في النفس البشرية، أو الإنصات إلى الداخل لإضاءة مغاليق الذات المعذّبة، وذلك بحشد مكونات جمالية متعددة في تطريز نصوصه، عبر كولاج بلاغي ثري بالإحالات.

هكذا تتناوب الشهوانية، والشطح الصوفي، والأسطورة على قماشةٍ واحدة. في «ترابها زعفران»، نذهب مأخوذين إلى مدينته الإسكندرية، في ما يشبه نشيداً روحياً، بتشابكات جمالية تنطوي على شغف عميق بهواء المدينة البحرية، ومكوناتها التاريخية، وتنويعاتها الإثنية. حمّى سردية آسرة، وشجن ذكريات، ومرثية لزمنٍ طواه النسيان. تكمن أهمية مساهمة هذا الروائي الرائد بتَمرّده على الأصول الراسخة للقصّ، فهو صاحب انعطافات كثيرة في مسالك الكتابة، والمواقف الإنسانية في آنٍ واحد. الشاعر أولاً، ثم القصّاص الذي نبش المناطق المهمَلة في خيارات شخوصه ومسالكها الحياتية، والروائي الذي حفر في تضاريس التربة العميقة لاستخراج الأحجار الثمينة وصقلها وإعادة البريق إلى روحها، والناقد التشكيلي الغارق في معنى اللون، والناقد السجالي. هذه الفضاءات المتجاورة كانت الجدار الذي استند إليه صاحب «الزمن الآخر» في إرساء ملامح هجنة إبداعية لافتة، من دون ضفاف، وتالياً يصعب تأطير تجربته في مناخٍ واحد، إذ تتجاور في مدوّنته مختلف نوازع النفس البَشرية: العنف، الهزائم، الانكسارات، سلالم الصعود والهبوط، الخيبة، اليأس، الخوف، ليس بوصفها عناوين عمومية، إنما أرضية صلبة لاحتدامات درامية متشابكة، تضع المتلقي في منطقة اللهاث المحموم لمعرفة مآل شخوصه، في معاركها الضارية مع واقع شرس ومتوحش.

إنه روائي المكان بامتياز، ومؤرخ إسكندرية أخرى، مطرّزة بكل ألوان الطيف، بحبر غوّاص محترف، وعاشق جسور، وصاحب مخيّلة بحالة استنفار دائم. الشبق التخييلي لم يتوقف عند هذا الحدّ.. في تسعينيات القرن المنصرم، ابتكر إدوار الخرّاط مصطلحاً نقدياً أثار سجالات كثيرة حوله، هو «الكتابة عبر النوعية»، بالإضافة إلى مصطلح آخر هو «الحساسية الجديدة»، في إشارة إلى تمازج وتنافر الطبقات السردية للنصّ المكتوب، وتطلعه إلى نسف التقنيات الراسخة عن طريق استثمار خصائص الفنون الأخرى. وبذلك كان صاحب «مخلوقات الأشواق الطائرة» يعبّر عن قلقه المستمر من سكونية نصّه، والعبور به إلى آفاق بلاغية أرحب. ولكن، هل دمّر الزهايمر أخيراً، كل هذه «المخلوقات الطائرة» في ذاكرته، كي يذهب إلى البياض التام في اسكندريته المشتهاة؟ تبّاً للغيبوبة التي خطفت قبله مباشرة جمال الغيطاني، مؤرخ سحر القاهرة وتجليات عمارتها. كأن جدارية السرد المصري التي رفعها جيل الستينيات على أكتافه منذورة للموت، من خيري شلبي ومحمد البساطي، إلى إبراهيم أصلان، وجمال الغيطاني، لتتوقف أخيراً عند إدوار الخرّاط.